

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد : فقد استرعى انتباهي إلى الكتابة في هذا الموضوع ما لاحظته من تعارض في أفكار الغزالي وتضارب في آرائه .

كذهابه مثلاً في كتاب « معارج القدس » [إلى أن صفات الباري كلها اعتبارات وإضافات ، وسلوب ، وليست زائدة على الذات . ولا توجب كثرة في الذات]^(١) . وفي كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » إلى : « أن الصفات السبعة - يعني صفات المعاني - ليست هي الذات . بل هي زائدة على الذات »^(٢) .

فأردت أن أثبت سر هذا التضارب بين أفكار الغزالي من ناحية ، وأن أثبت أي الرأيين المتعارضين هو الحقيقة في نظره من ناحية أخرى .

وقد رأيت من الوسائل الضرورية لفهم هذا التضارب أن أتبع الأدوار التي تقلب فيها الغزالي والعوامل التي ساعدت على تكوينه ، فافتضاني ذلك أن أعقد فصلاً أخصصه لدراسة حياة الغزالي أستوضح فيه شخصه ما أمكن ذلك .

ورأيت أن مما يساعد على هذا الاستيضاح دراسة الحال العلمية والسياسية إبان عصره . أعني في القرن الخامس الهجري . فجعلتها فصلاً آخر اتخذته مقدمة لدراسة شخصه .

ورأيت من الوسائل الضرورية أيضاً دراسة كتبه دراسة وافية : فعقدت لهذه الدراسة فصلاً سجلت فيه ملاحظاتي على هذه الكتب .

(١) ص ١٧ طبعة الكردى .

(٢) ص ٦٥ طبع الخانجي .

ثم رأيت أن أستعين بآراء من درسوا الغزالي ، وأن أستعرض أحكامهم على هذا التضارب ، فوجدتهم قد أدركوه وحاولوا الكشف عن سره ، فعقدت لمحاولاتهم هذه فصلاً بعنوان « الغزالي كما فهمه الباحثون » .

ولما كنت قد ناقشت كل هذه الحلول بما يجعلها واهية ضعيفة في نظري ، وكنت قد اهتديت إلى حل جديد للمسألة فقد عقبته هذا الفصل بفصل آخر عنوانه « الغزالي كما فهمته » .

ولما كانت هذه الفصول تسير بالقارئ خطوة خطوة حتى تضع يده على المراجع التي تصور الحقيقة في نظر الغزالي فقد جعلت الحديث عن هذه المراجع باباً واحداً تحت عنوان « مصادر الحقيقة عند الغزالي » .

ولما كانت هذه البحوث قد كشفت سر هذا التضارب فقد رأيت أن أصوب إلى الهدف وأن أشتغل بالمقصد — فأصور الحقيقة في نظر الغزالي — بعد أن أخذت من الوسائل ما يكفي ، فعقدت لها فصلاً بعنوان « جوهر الحقيقة عند الغزالي » . وفي هذا الفصل أردفت الرأي الحق في نظر الغزالي بغيره من الآراء التي دعت إلى قولها مناسبة ، كلما أمكن ذلك .

وقبل ذلك رأيت أن أعالج الوسيلة التي رآها الغزالي طريقاً مأمونة للوصول إلى الحقيقة فعقدت لها فصلاً بعنوان « وسيلة الحقيقة عند الغزالي » .

ولما كان هذان الفصلان يعالجان الحقيقة من حيث وسيلتها ومن حيث جوهرها فقد جعلتهما باباً واحداً بعنوان « الحقيقة عند الغزالي » .

فتكون أبواب الكتاب وفصوله كما يلي :

الباب الأول : مصادر الحقيقة عند الغزالي .

الفصل الأول : الحال السياسية والعلمية في عصر الغزالي .

الفصل الثاني : حياة الغزالي .

الفصل الثالث : ملاحظات على كتب الغزالي .

الفصل الرابع : الغزالي كما فهمه الباحثون .

الفصل الخامس : الغزالي كما فهمته .

الباب الثانى : الحقيقة عند الغزالى .

الفصل الأول : وسيلة الحقيقة عند الغزالى .

الفصل الثانى : جوهر الحقيقة عند الغزالى .

• • •

والتاريخ الفكرى مَرَكَبٌ صعب . وطريق وعرة ملوية : لأن المؤرخ لهذا الجانب — فوق أنه يعبر القرون ويثب وثبات فسيحات فى أحشاء الماضى السحيق — باحث عن فكرة . والأفكار والنوايا محلها القلوب . وإدراك ما فى القلوب يعز حتى فى حياة أربابها : فما بالك وقد تطاول العهد . وبعدت الشقة ، واستطال الزمن ؟ !

قد يقال إن بين يديك رسوماً وآثاراً هى مؤلفات من تأريخه : أليس فيها ما يكشف لك الحجاب عن وجه الحقيقة ؟

حقاً إن هذه المؤلفات هى كل ما يمكن التعويل عليه فى أمثال هذه المواطن : ولذا فإن مؤلفات الغزالى هى مناط الأمل ومعقد الرجاء فى هذا البحث الذى أعجله . ولكن الغزالى كان من المولعين بكثرة التأليف حتى زادت تأليفه على الثلاثمائة . وهذه الكثرة المفرطة تقتضى زماناً متطاولاً ومجهوداً شاقاً متواصلاً . حتى يستطيع جمع هذا الشتات وترتيبه . واستخراج منهج المؤلف وعقيدته من بين ثناياه .

ولأمر ما هاجم الغزالى ونقد ، واشتد فى هجومه ونقده . فخلق له منذ اللحظة الأولى خصوماً ألداء اشتدوا هم أيضاً فى هجومهم ونقدهم^(١) . كما خلق لنفسه أصدقاء أعجبهم جرأته وشجاعته فشرعوا أقلامهم يذودون عنه ويدافعون^(٢) . واشترك الفريقان فى حرب جدلية عنيفة دامت منذ عهد الغزالى حتى اليوم .

واقضى الحال وجود فريق ثالث حملهم الإنصاف على أن يقولوا كلمة الحق^(٣) . إذ أن المسألة لم تصبح مسألة أشخاص بل أصبحت مسألة الحق ، والباطل .

(١) كما صنع أبو الوليد الطرشى ، والمازرى ، وابن رشد ، وابن القيم ، وكثيرون غيرهم .

(٢) كما صنع صاحب كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » وكما صنع السيوطى فى كتابه « تشيد الأركان من ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

(٣) كما صنع خوجه زاده فى « تهافت الفلاسفة » والطوسى فى « الذخيرة » .

فصار لزماً على كل من يريد أن يعرف الغزالي أن يتنقل بين هذه الصفوف . وأن يصيخ بقلنا أذنيه إلى المؤيدين والمعارضين جميعاً . فإن الإنسان لا يُعرف معرفة حقيقية من أعدائه فقط ، ولا من أصدقائه فقط « فكلاهما مبالغ . بل من كليهما جميعاً . ولقد أوصى الغزالي في كتابه الإحياء من يريد أن يعرف نفسه أن يرهف أذنيه إلى أقوال الأصدقاء والأعداء فيه » . ولست أرى فارقاً بين من يريد أن يعرف نفسه ومن يريد أن يعرف نفس غيره .

ثم إن أمثال « الغزالي » من الشخصيات الفذة التي فسح لها الزمان مقعداً في صدر الوجود ، يتخذها الضعفاء رداً يَحْتَمُونَ به ؛ فيضعون المؤلفات التي لو ظهرت بأسمائهم لأهملت وهان أمرها ، ويضيفونها إلى من ذاع صيتهم ونبه أمرهم ؛ ففسير مسير ذكركم وتشتهر على حسابهم .

وأحياناً توضع المؤلفات وتضاف إلى أحد المشاهير الأعلام بقصد سيئ ، فتحتشى بالأفكار التي لا تلتئم مع مجموعة أفكاره حتى تشوش على سمعته ، وتُدع مجالاً للطاعنين عليه والنائلين منه . وهذا من شأنه أن يوجه النظر وينبه الباحث إلى أن يتلقى المؤلفات بحيطه حذر ، وينظر إليها نظراً فيه شيء غير قليل من الشك والارتباب .

ولقد أقيم حول كتابين للغزالي - سأعرض لهما فيما بعد - ضجة وصياح فنفيا وأثبتا ، وأشيد بهما وأخفلا . وهذه صعوبة لا يستهان بها في طريق الباحث . فلا بد أن يضاعف الجهد ويواصل الدأب حتى يصل إلى رأى لعله ينير من حلك هذه الظلمة . ويكشف عن وجه الحق في هذه الملهمة .

ثم إن بعض مؤلفات « الغزالي » مفقود ، وبعضها مخطوط غير ميسور . وهذه المؤلفات لعل فيها من الأفكار ما كان يساعد الباحث على أن يرجح رأياً على رأى أو خطة على خطة ، فبدل أن يعمل الرأى والاستنباط المعرضين للخطأ والعتار ، ربما كان واجداً فيها ما يغنيه عن كل ذلك .

وما هو جدير بالملاحظة هنا أن أخطر الآراء التي سجلتها على الغزالي كالقول بقدوم العالم ، وأزليته ، وعدم علم الله بالجزئيات ، وعدم البعث الجثمانى ،

كلها استنباط لم يصرح الغزالي بواحد منها .

ثم إن عصر الغزالي كان عصر فتن واضطراب وزعازع وأعاصير . وهذه الملابس غير العادية قد تحمل العلماء أحياناً على أن يترخصوا في أمور - نزولاً على حكم الضرورة - لعلهم لو كان العدل قائماً والنظام مستتباً والحال عادية لم يترخصوا فيها . ونحن . لعدم درايتنا بكل ما أحاط بهم من ملابس في تلك العصور الخوالي . نحاسبهم على كل ما صدر منهم . وربما كان لنا معهم موقف آخر لو أحطنا بملابسهم .

ثم إن الغزالي نهى من كل ثقافة وروى من كل مشروع . والغزالي حر في تفكيره . لا يرى في الكثرة دليلاً على صوابها . ولا في القلة أمانة على خطئها ، يعرف الرجال بالحق . ولا يعرف الحق بالرجال . وقد ساعده عدم تعصبه على أن يأخذ الحق أنى وجده ولو من فم كافر . ولا عجب فعذن الذهب الرغام - كما يقول - . ولهذا ظهر الغزالي وفيه شبه بكل أولئك الذين قرأ لهم . وأخذ عنهم : فكان كالبلورة انعكس عليها جملة ألوان . وهذا ما جعل الناس يتنازعونه ، فالمتصوفة يرونه صوفياً . والأشاعرة يرونه أشعرياً . والفلاسفة يرونه فيلسوفاً .

وبحق يقول فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغي^(١) : [إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام . وإذا ذكر ابن عربي خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرها . وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد : خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته .

يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر . والغزالي الفقيه الحر . والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها . والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيا

(١) في مقدمة كتاب الأستاذ « فريد رفاعي » عن الغزالي .

الضمائر ومكونات القلوب . والغزالي الفيلسوف . أو الذى ناهض الفلاسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالي المارئي . والغزالي الصوفي الزاهد .

وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره . رجل متعطش إلى معرفة كل شيء ، نهم إلى جديع فروع المعرفة [.

بل إن الغزالي نفسه يقول فى كتابه « المتقذ^(١) » : [اعلّموا - أحسن الله إرشادكم . وألان للحق قلوبكم - أن اختلاف الخلق فى الأديان والممال ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب . على كثرة الفرق . وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون . وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل يزعم أنه الناجي . وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولم أزل فى عنفوان شبابه منذ راهقت البلوغ . قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أتقحم بحلة هذا البحر العميق . وأخوض غمراته خوض الجسور . لا خوض الجبان الحذور . وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة . وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محقق ومبطل . ومتسن ومتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته . ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته . ولا فلسفياً . إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته . ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطياه وزندقته .

وقد كان التعطش لدرك حقائق الأمور دأبى وديلمى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعنا فى جبلتى لا باختيارى وجبلتى حتى انشطت عنى رابطة التقليد . وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا [. ثم إن الغزالي عاب على علم الكلام وهو مؤلف فيه . وعاب على الفلاسفة وهو مؤلف فيها .

والغزلى شك وأمعن فى شكه ، وقد كان قبل الشك يستعمل موازين للحقيقة لم يرض عنها بعد الشك ، ومع ذلك ظل يعترف بمؤلفاته القديمة ، ويحيل عليها عند المناسبة . .

هذه الصعوبات — وسواها كثير — تجعل « الغزالى » لغزاً يعسر حله وأقصد صدق « ديبور » حيث يقول :

[إن أمثال الغزالى معضلة فى نظر الفلسفة ، فأشخاصهم حقائق روحية تحتاج إلى توضيح] .

من هذا يظهر أن البحث عن الغزالى لن ينتج أكثر من ظنون؛ والظن يغنى فى مثل هذه المواطن إذ لا سبيل إلى اليقين .

ولن يضير الغزالى هذا الظن أو ذاك . فقد لى ربه وتبوأ مكانه اللائق به ، وقطع كل صلاته بعالمنا هذا ، وما فيه من خير أو شر ، ولن ينفع الغزالى شهادتنا له بأنه فى درجة أنبياء بنى إسرائيل إن لم يكن عند الله كذلك . ولن يضيره أن يحكم عليه بأنه فيلسوف كان يضمّر الفلسفة ، ويخفيها عن العامة ، الذين لا تقوى أفكارهم على هضمها ، إن كان عند الله على خلاف ذلك .

فلا ينبغى النزاع حول شخصه ، ولا شن الغارات بسببه . وليدرس من شاء أن يعرف ، والمخطئ والمصيب فيه — متى خلصت النيات — مأجور ، معذور أو مشكور .

ولقد عمدت إلى دراسته من كتبه جمعت منها ما شاء الله أن أجمع . لم يند عني إلا مفقود ، أو مخطوط غير ميسور ، ولم يفتنى الانتفاع بمن كتبوا عنه ، بيد أن انتفاعي بهم محصور فى ثلاثة أمور :

الأول : أن يدلوا على كتاب لم أكن أعرفه أو على مكان كتاب أكون قد أخطأت .

الثانى : أن يدلوا على أهمية نص أكون قد مررت به مسرعاً فلم أتنبه لأهميته فأعاده .

الثالث : معرفة تاريخ الغزالى الزمنى .

أما أن يبدوا رأياً ، لا أجد فى كلام الغزالى ما يؤيده ، فإنى لا آخذ به ، بل أردده وأناقشه .

هذه نظرة في الغزالي ، لا أزعم أني قد فقتُ بها الأوائل . ولا ادعى اني بها لم أدع ما يقوله الأواخر . ولكنها محاولات ، خطتها يد لا عهد لها من قبل بحياة الكتابة والتأليف ، فقد تكون خطأ ، وقد تكون صواباً ، وقد تكون مزاجاً من كليهما .

ولكن يشهد الله أني ما حملت على الغزالي — إن كنت قد حملت عليه — تعنتاً وبغضاً ، ولا دافعت عنه — إن كنت قد دافعت — تعصباً وحجاً . ولكن الحق أردت والصواب توخيت ، وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى . وفي هذه الخطة مرت ، وعلى حول الله وقوته اعتمدت ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

سليمان دنيا

الطبعة الأولى	{	جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧
	{	مايو سنة ١٩٤٧
الطبعة الثانية	{	رجب سنة ١٣٨٥
	{	نوفمبر سنة ١٩٦٥
الطبعة الثالثة	{	محرم الحرام سنة ١٣٩١
	{	فبراير سنة ١٩٧١